بين اللغة والهويّة وأزمة الاغتراب
(واقع اللغة العربيّة نموذجًا)

Between language and identity and the crisis of alienation
(The reality of the Arabic language as a model)

عبد القادر طالب*

الملخّص

يسعى هذا البحث إلى مقاربة موضوع اللغة والهويّة؛ بالوقوف عند ما يثيره من تساؤلات حول طبيعة العلاقة القائمة بينهما وحدود تداخلهما، فهو موضوع شائك، متشعّب طرحًا ودراسة، لما بين قطبيه من صلات عميقة، ترتبط بالخصوصيات الروحية والثقافية للأمم والشعوب قاطبة.

وينصبّ تركيز هذا البحث على واقع اللغة العربيّة وتحدّيات تعليميتها بالوطن العربي، لاسيما في ظل مشروع العولمة الغربية، الذي يسعى إلى تغريب لغة الهويّة وترسيخ قيم مغايرة لقيم الأمة العربية.

الكلمات المفتاحيّة: اللغة، الهويّة، العربيّة، العولمة، الاغتراب.

Abstract

This research seeks to address the issue of language and identity by discussing the problems and questions it raises about their relationship. It is a complex topic, with deep links between its poles, and it is linked to the spiritual, civilisations and cultural peculiarities of nations and peoples.

The focus of this research is on the reality of the Arabic language and the challenges it faces in the Arab world, especially in light of the Western globalisation project, which seeks to Westernize the language of identity and consolidate cultural values different from those of other nations.

Keywords: language, Identity , Arabic , Globalisation; Alienation.

* قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة أمحمد بوقرة – بومرداس، الجزائر ، تاريخ استلام البحث 2021/01/31، تاريخ قبوله 2021/06/22

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنيّة 2021

DOI: 10.15849/ZJJHSS.210730.02

المقدمة

ما فتئت مسألة اللغة والهويّة– منذ بدايات القرن العشرين– موضوعًا فكريًا فلسفيًا تربويًا، إذ لم يُغَيّب عن اهتمام الباحثين أو يُعدَم من حلقات المفكّرين؛ بل لم تستنفده بحوثهم ولم تضع مناقشاتُهم حدًّا للجدل القائم حوله؛ فهو موضوع عميق في طرحه، متشعّب في جوانبه؛ لما بين قطبيه من تجاذبات كبيرة، معقدة، لارتباطهما بالخصوصيات الروحية والثقافية والحضارية للأمم قاطبة؛ خصوصيات سعى مشروع العولمة الغربية – وما يُكرّسه من منظومة قيم، مغايرة لقيم وثوابت مجتمعاتنا– إلى دحضها ومحو آثارها، الأمر الذي أضحى يشكّل تحدّيًا كبيرًا من حيث البحث عن سبل التوفيق بين انفتاحها على الآخر من جهة والحفاظ على هويتها وكينونتها من جهة أخرى؛ بين تعزيز الانتماء لمقوماتها وتجنّب ظاهرة الاغتراب المحدق بها.

وبناءً على هذا، تسعى ورقتنا البحثية–بعون الله تعالى–أن تطرق مسألة اللغة والهوية والعلاقة القائمة بينهما؛ من منظور اجتماعي تربوي، ووفق إجراء وصفي تحليلي؛ بالوقوف عند ما يثيره هذا الموضوع من تساؤلات؛ تستفز الباحث وتحرّضه على خوض غمار البحث في مراميها، ومن أبرزها:

ما طبيعة الصلة بين اللغة والهوية؟ وما حدود العلاقة بينهما؟ ما المقصود باغتراب الهوية ولغة الهوية؟ ما واقع اللغة العربية وتعليمها في ظل العولمة الغربية؟ ما الإجراءات الكفيلة بضمان انفتاحنا على الآخر وتعزيز انتمائنا لقيم هويتنا وثوابتها؟ ما السبيل إلى تثبيت هويتنا اللغوية والانفكاك من هاجس اغترابها؟

– محدّدات نظرية:

– ماهية اللغة:

تشير معاجم اللغة إلى أنّ كلمة **(لغة)** "أصلها (لُغْوَة) على وزن فُعْلَةٌ من لَغَوْتُ، أي: تكلّمت، وقيل: أصلها لُغَيٌّ أولُغَوٌّ، وتشتق من(لغا يلغو لغوا) بمعنى(تكلّم)، فاللّغو: النطق؛ إذ يقال: هذه لُغَتُهم التي يَلْغُون بها أي يَنْطِقُون، ولَغْوَى الطير، يعني: أصواتها..."[1]

أمّا اصطلاحا؛ فاللغة: "أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم"[2]، كما تعتبر "نظامًا من الرموز أو مجموعة من العادات الصوتية المتعلّمة أو رموزًا صوتية منتظمة"[3]، هي همزة التواصل وأداة التفاهم بين الأفراد والجماعات، وهي سبيل التعبير عن خلجات النفس وأنّات الفؤاد...

– معنى الهوية:

الهوية بفتح الهاء تعني لغة: الكوّة أو المهواة بين جبلين، وقيل: بئر أو حفرة بعيدة المهواة وعرشها سقفها المُغمّى عليه بالتراب، الذي يغترّ به واطئه فيهوى ويهلك...[4]، أما الهوية بضم الهاء وكسر الواو وتشديد الياء، فتشتق من الضمير (هو)، وتشير إلى المبدأ الدائم الذي يسمح للفرد أن يبقى(هو هو) وأن يستمرّ في كائنه عبر وجوده[5]، وورد

---

(1) ينظر: ابن منظور: لسان العرب، (الجزء الثاني عشر)، ص300.

(2) ينظر: ابن جني: الخصائص، الجزء الأول، ص33.

(3) أحمد عبده عوض: مداخل تعليم اللغة العربية (دراسة مسحية نقدية)، ص09.

(4) ينظر: ابن منظور: لسان العرب، تصحيح: أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصادق العبيدي، ط03، دار إحياء التراث العربي،1419هـ، 1999م. (الجزء الخامس عشر)، ص170.

وينظر أيضا: مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ط4، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2004م، ص1002.

(5) ينظر: سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1985، ص 225.

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنية 2021

بكتاب (التعليقات) للفارابي بأنّ: "هوية الشيء عينيته ووحدته وتشخصه ووجوده المنفرد لـه الذي لا يقع فيـه اشتراك، والهو هو معناه الوحدة والوجود، فإذا قلنا زيد هو كاتب معناه زيد موجود كاتب"[6] ويعدّها الجرجاني في (التعريفات): "الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق، اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلقة."[7]

أمّا اصطلاحا فتعدّدت تعاريف الهويّة (Identity) بتعدد العلوم؛ وإن حافظت على معناها الجوهري؛ ففي الفلسفة تعرّف بأنّها:"حقيقة الشيء من حيث تميّزه عن غيره وتسمى أيضا وحدة الذات"[8]، وفي علم النفس، فإنّها تُطلق على "الشيء نفسه أو مثيله من كل الوجوه، الاستمرار والثبات وعدم التغيّر"[9]، أمّا في علم الاجتماع، فيُقصد بها كلّ ما يميّز الفرد عن غيره ويحدد حالته الشخصية.[10] وما ينطبق على الفرد ينسحب على الجماعة أيضا.

بيد أنّ هذا المعنى الماهوي للهوية (أن يبقى الشيء هو هو) لا يعني ثباتها المطلق وعدم تغيّرها، ففي حيّز الهوية "يتساكن ما هو خاص وما هو مشترك ويتفاعل الذاتي والغيري وتتقاطب عناصر الثبات وعناصر التغيّر... بمعنى أنّها نسيج علائقي، متفاعل، متحوّل بتحول الظروف والسياقات المؤسسة على مفهوم التطوّر وحركة التاريخ."[11]

وعليه، فالهوية، ليست معطى ثابتا وإنما هي شيء يخلق، لا يعيها الإنسان ولا يشعر بها مباشرة، بحكم أن الهوية هي الماهية والوجود يسبق الماهية؛ فالإنسان يوجد ويعيش أولًا ثم يعي ذاته ثانيًا، ولحظة يبدأ وعيه بالعالم المحيط به، ينشأ التساؤل عن هويته: من هو؟ ولماذا هو في هذا الوضع الاجتماعي؟ ...[12]

ماهية الاغتراب:

الاغتراب مصدر الفعل (إغتربَ)، (يغترب)، اغتراباً، من الجذر اللغوي (غَرُبَ)، ويفيد معناه لغة عدّة معان؛ فقولنا اغترب فلان، بمعنى: "احتدّ و نشط في حركته، بَعُد أو نزَح عن وطنه تزوَّج من غير أقاربه، و يقال: اغترب الرجل داخل بلاده: أي أحسّ بالغربة فيها أو فقد ذاته وشخصيته وكأنّه غريب عن مجتمعه..."[13]

أما اصطلاحًا، فإنّه من الصعوبة الاكتفاء بتعريف واحد للاغتراب (*Alienation*)، ومرد ذلك طبيعته مفهوماً؛ فهو يحمل معاني وثيقة الخصوصية، تختلف من باحث لآخر. وهناك إجماع على أن أوّل من استخدم مصطلح الاغتراب كان (هيجل) أو (أبو الاغتراب) كما لقب بذلك؛ بحكم تداوله لهذا المصطلح بجل مؤلفاته ولما شهده معه من تطوّر ملحوظ؛ إذ "تحوّل من مجرد إشكال يعانيه الإنسان في عصور الأزمة أو القلق أو مجرد فكرة ترنق في أذهان بعض المفكرين، أو كلمة ترد في هذا المؤلف أو ذلك، إلى مصطلح فني ومفهوم دقيق يطلق عن قصد مقصود"[14]

---

(6) الفارابي: التعليقات، دائرة المعارف العثمانية، جمادى الآخرة 1436، ص21.

(7) الجرجاني: التعريفات، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988م.ص257.

(8) مجمع اللغة العربية: المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1979م، ص208.

(9) فاخر عاقل: معجم علم النفس، ط1، دار الملايين، بيروت، 1985، ص55.

(10) ينظر: أحمد زكي بدوي: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، ط1، مكتبة لبنان، بيروت، 1977م، ص185

(11) وفيق سليطين: سؤال الهوية ونقد منطق الخصوصية، أوراق مؤتمر الهوية الوطنية، ط1، مداد مركز دمشق للأبحاث والدراسات، وزارة الثقافة، دمشق، 2010م ، ص 02.

(12) ينظر: حسن حنفي: الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2012م ، ص23.

(13) ينظر: مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ص 646. وينظر أيضا: أحمد مختار عمر وآخرون: معجم اللغة العربية المعاصرة، ط1، عالم الكتب، القاهرة، د.ت، المجلد الأوّل، ص 1602.

(14) ينظر: محمود رجب: الاغتراب سيرة مصطلح، ط3، دار المعارف، القاهرة، 1988م، ص13.

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنيّة 2021

DOI: 10.15849/ZJJHSS.210730.02

عمومًا، فالاغتراب ظاهرة نفسية، اجتماعية، يحدث لحظة انفصام الذات وانقسامها على نفسها؛ إذ "يصبح وجودها مثل العدم، أو على الأقل مثل الوجود الطبيعي للأشياء"[15]؛ تحت سلطة واستبداد ظروف خارجية متعددة، تتحول الذات بموجبها، من وضعها الطبيعي إلى وضع مغايرٍ؛ يُلغي وجودها وحريتها الداخلية.

– طبيعة العلاقة بين اللغة والهوية: مشاكلة أم اختلاف؟

لإن كانت الهوية كما أشرنا فيما تقدّم من هذا البحث، بأنّها ليست معطى ثابتًا، وإنما هي شيء يخلق، ويتحوّل بتحول الظروف وتطوّر السياقات وحركة التاريخ، فإنّ هذا الوصف لا يجرّد الهويـة بأي شكل من الأشكال عن سماتها ومكوناتها الثابتة، التي تشكّل الوعي الجمعي بين أفراد المجتمع الواحد وتميّزه عن غيره من المجتمعات الأخرى، ومن أبرز هذه المكونات؛ اللغة، التي كثيرًا ما أدرج اسمها ضمن سياقات الحديث عن الهوية، وحظي البحث في طبيعة العلاقة بينهما، باهتمام كبير في الوسط الفكري، غربيًا كان أو عربيًا، نظرًا لما أثاره وما فتئ يثيره موضوع الهويـة من إشكالات جوهرية، لاسيما عند البحث في امتداداتها العميقة إلى الثوابت الروحية والثقافية عند الأمم، التي عملت الهيمنة الغربية الثقافية؛ على دحضها ومحو آثارها، تحت غطاء التحرر والانفتاح على الآخر.

قبل الحديث عن طبيعة العلاقـة بين اللغة والهوية، تجدر بنا الإشارة إلى إبراز سمات التشاكل وميزات الترابط التي رصدّت بينهما؛ فلقد تبيّن أن بين الهوية واللغة، من حيث التشكل والتبلور، معالم تداخل عديدة:[16]

– هما خاصيتان إنسانيتان، وجدتا مع وجود الإنسان فوق الأرض.

– مرتبطتان بالعقل البشري؛ فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يمتلك الفكر والوعي والشعور بالـ (أنا) والآخر.

– لا يولدان مع الإنسان ولا يتشكلان لديه دفعة واحدة، وإنما لهما علاقة وثيقة ببيئته؛ فالإنسان يكتسب لغته لحظة يباشر التواصل مع مجتمعه، ثم يثريها ويطورها بزيادة تفاعله مع بني جنسه، والحال نفسها مع هويته فهي لا تولد معه، وإنما يرسمها ويحدّد شكلها وألوانها ما يرد إليه من خارجه، فهويته جزء من هوية مجتمعه الذي ينتمي إليه ويتفاعل معه.

– كلاهما مركب؛ يشتمل على أجزاء متداخلة لا يمكن فصلها عن بعضها؛ فكما أنّ اللغة تشمل طرائق التفكير عند الجنس البشري وتاريخه وعلاقاته ومشاعره وطموحاته، فالهوية في جوهرها تركيبة من هذه العناصر جميعها.

لكن...أيهما أسبق؛ اللغة أم الهوية؟

يبدو أنه من الصعب على الباحث أن يجد تفسيرًا جامعًا مانعًا، يثبت أسبقية اللغة عن الهوية أو الهوية عن اللغة، فبالرغم من البساطة الظاهرية التي تتبدّى من العلاقة بينهما، إلاّ أنّها تتضمّن درجة عالية من التشابك والتعقيد، بيد أن ذلك لا يعفي الباحث، من إيجاد مقترب ولو فلسفي، قد لا يحظى باتفاق الجميع، غير أنه يشكّل مفهومًا أو يقدّم تصورًا منطقيًا، يحرر الباحث من دائرة هذه الإشكالية.

تأسيسًا على مقولة أن (الوجود أسبق من الوعي)، وبموجب أن الإنسان يوجد أولاّ، ثم يعي ذاته ثانيًا، ثم ينشأ التساؤل عن هويته: من هو؟ ولماذا هو في هذا الوضع ؟، يرى حسن حنفي أنّ الهوية أسبق في الوجود الإنساني من

(15) حسن حنفي: الهوية والاغتراب في الوعي العربي، مجلة تبيّن، العدد01، قطر، صيف2012م، ص11.

(16) ينظر: محمود السيّد: اللغة والهوية، مجلة مجمع اللغة العربية، المجلد (85)، الجزء (03)، دمشق، د.ت، ص 642–643 .

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنية 2021

اللغة وأنّ اللغة هي ما تعبّر به الهوية عن نفسها وبواسطتها يعي الإنسان وجوده (هويته)[17]، فالإنسان يتكلم بعد أن يوجد وإثبات وجوده مرتبط بلغته، ألم يقل سقراط في مقولته المشهورة: (تكلّم حتى أراك)؟

وهذا ما أقرّه بدوره الفيلسوف مارتن هيدغر، المؤسس الحقيقي للوجودية بعد هوسرل، الذي كان اهتمامه باللغة بالغا، فقد عدّها بيت الوجود وأن فهم الوجود لا يتأتى إلا باللغة؛ فهي من ينقله من التحجّب إلى النور ومن الخفاء إلى الإبانة والتجلي، وبموجب هذا – يؤكد هيدغر– "صار الإنسان يوجد بقدر ما يتكلم، فثمّ ارتباط وثيق بين القول والوجود لدى الإنسان، بين حدوث الوجود و بين اللغة... لقد صارت اللغة هي التي تعطي الوجود للأشياء والإنسان لا يوجد في العالم إلاّ بقدر ما يملك لغة..."[18]، ولا يفسّر ارتباط وجودنا باللغة هنا، أننا عبيد لها، تصنعنا كيفما تشاء وإنما القصد من ذلك، أن "اللغة هي الفلك الذي تسبح فيه كل الكائنات الإنسانية، اللغة أكبر من ذواتنـــا، اللغة هي حياة كل البشر، كل الذوات، هي حقيقة فوق الأفراد الذين يشاركون فيها مشاركة جزئية." [19]

– حدود العلاقة بين اللغة والهوية:

ما إنّ يطرح موضوع الهوية واللغة على محك المساءلة والنقاش، حتى يفرض السؤال الآتي ذاته:

ما حدود العلاقة بين اللغة والهوية؟

إنّ اللغة والهوية أمران متلازمان؛ فهما موضوعان مرتبطان يتفاعلان في السلوك الفردي والاجتماعي، يؤثّر كل منهما في الآخر، إيجابًا وسلبًا، قوة وضعفًا؛ فإذا قويت الهوية قويت اللغة، وإذا ضعفت الهوية ضعفت اللغة[20]، ومن ثمّ؛ لا يمكن في اعتقادنا، ذكر الهوية دون اللغة أو تشكيل الهوية بمعزل عن اللغة، فالطرفان يتبادلان التأثير.

وبناء على هذا، نكون أمام بناء تصوّر جدلي للعلاقة بين اللغة والهوية، وجدلية العلاقة تفرز دورًا جوهريًا للغة في حياة الشعوب، فما عادت اللغة تختزل وظيفتها في مجرد "أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم"[21]، فالتواصل عبر اللغة ضروري ومعلوم، بينما أهميتها الجوهريَّة أكثر من ذلك عمقًا؛ إنّها"وعي الإنسان بكينونته الوجودية وبصيرورته التاريخية وبهويته الذاتية والاجتماعية والقومية وكليته الإنسانية إنّها السجل الناطق بهذه الأبعاد جميعها"[22]، وقد تبيّن في تاريخ الثقافة أن اللغة من حيث وظائفها التواصلية وأشكالها التعبيريـة، أحسنها وجها في تشكيل الهوية وفي مواجهة متطلبات الثقافة المحلية والمحافظة على السلوك الاجتماعي للأفراد في تفاعلهم مع محيطهم الثقافي وتأقلمهم بمرونة مع متغيراته[23].

ومن ثمّ، فإذا كانت الهوية هي إحساس الإنسان بالانتماء القومي إلى كيان اجتماعي ما، فإنّ اللغة هي أساس هذا الإحساس والقلب النابض به لدى أفراد كل أمة، وبذلك يعدّ استهداف اللغة بمثابة استهداف للهوية، في صميمها وتقويض مركزي لكيان الأمة المستهدفة في هويتها.

---

(17) ينظر: حس حنفي، الهوية والاغتراب في الوعي العربي، ص10–11

(18) إبراهيم مصطفى إبراهيم: فلسفة اللغة نشأنها وتطورها وأبرز أعلامها، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2009م، ص203.

(19) مصطفى ناصف: اللغة والتفسير والتواصل، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1995م، ص213.

(20) ينظر: حسن حنفي: الهوية والاغتراب في الوعي العربي، ص09.

(21) ينظر: ابن جني: الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دط، عالم الكتب، بيروت، دت. الجزء الأول، ص33.

(22) محمود أمين عالم: دفاع عن الخصوصية اللغوية، عن كتاب: لغتنا العربية في معركة الحياة، العدد (السابع والثامن عشر)، سلسلة قضايا فكرية للنشر، القاهرة،1997م، ص09.

(23) محمود السيّد: اللغة العربية (واقعا وارتقاء)، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دت، ص24.

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنيّة 2021

DOI: 10.15849/ZJJHSS.210730.02

– لغة الهوية وأزمة الاغتراب (العربية نموذجا):

لقد أحدث مشروع العولمة الغربية تغيرات عميقة في البنية الثقافية للأمة العربية والإسلامية، فقد تخلت العولمة عمّا "نصّت عليه المواثيق و المعاهدات الدولية، بأنّ لكل ثقافة كرامة وقيمة يجب احترامهما والمحافظة عليهما، وأن إضفاء طابع العالمية على العلاقات الدولية لا يتعارض في أصله مع المصالح المشتركة بين الأمم والشعوب وبين تنوّع هوياتها وتعدد خصوصياتها"[24]، ونهجت نهجًا مغايرًا، يتجاوز مفهوم العالمية*إلى إعلاء ثقافة المهيمن وتمركزها، مقابل إقصاء ثقافات الآخر وتغييبها، وهي أهداف محورية، قام عليها النظام الدولي الجديد وما فتئ يسعى إلى الظفر بها وبأي شكل من الأشكال. فقد كرّس لمنظومة من القيم الفكرية والثقافية، المغايرة لثوابت وقيم مجتمعاتنا العربية، مما جعل الذات العربية تعايش بوعي أو عدمه انفصامًا مستمرًّا؛ **يتجاذبها قطبان** أساسيان؛ **قطب الانتماء** الذي تستشعر فيه بأنها جزء لا يتجزأ من ثوابت هويتها العربية، **وقطب الاغتراب** الذي يولجها في دوامة من الارتباك الثقافي والعزلة الاجتماعية نتيجة عدم التوفيق بين جوهرها والطارئ عليها، بين سؤال الأصل المتجذر فيها وبين صدمة الانبهار بالوافد عليها.

ولئن كانت اللغة منزلتها عظيمة عند كل أمة، فإنّ اللغة العربية هي أشرف اللغات وأقدسها عند الأمة العربية والإسلامية، وشرف قدسيتها، لم يأت عبثًا أو من العدم، وإنما تشريف من الخالق تبارك وتعالى، أَنْ أنزل قرآنه بها وأوحى بها على خير الأنام، سيد المرسلين وخاتمهم (عليه الصلاة والسلام). قال عزّ وجلّ في محكم تنزيله:

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[25]

وبموجب هذا التقديس الإلهي للغة الضّاد، فإنّها تحارب وتطالُهَا ألوانٌ من المكائد والدسائس من قبل أعدائها وأعداء أمّتها؛ وما يؤكد عداوة هؤلاء للعربية، هو ربطهم لها بالإسلام، وهي "عداوة لا واعية تكوّنت استنادًا إلى قرون من الصراع بين الغرب وحلفائه من جهة والعرب والإسلام من جهة ثانية، أدت بالفريق الأوّل إلى تحويل عداوتهم اللاواعية باتجاه اللغة العربية؛ راجين [بذلك] تفكك الوحدة الروحية للعالم العربي"[26]، و مازال هذا العداء الغربي للعربية قائمًا، حيث يسعى إلى تجسيده وبشراسة في تبني صراع بين العربية لغة هوية الأمة العربية، وبين لغة العولمة لغة الغرب وذلك وفق خطط مدروسة ممنهجة؛ للتسريع في طمس اللغة العربية وفي عقر دارها، باعتبارها ثابتًا محوريًا من ثوابت الحضارة العربية.

وقد اتبع الغرب في عولمة لغته والسعي إلى إزاحة العربية–بزعزعة فكرة الانتماء إليها وفرض اغترابها ببيئاتها الناطقة بها–استراتيجية الإلغاء والإرساء وهي استراتيجية هدف في شقها الأول إلى تشويه اللغة العربية ومسخها بغرض إلغاء رابطها الروحي الجامع بين أفرادها، وهدف في شقها الثاني إلى إرساء لغته وتثبيتها، ببسط نفوذها.

---

(24) ينظر: عبد العزيز بن عثمان التويجري: الهوية والعولمة من منظور التنوع الثقافي، ط2، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إيسيسكو، المغرب، 1436هـ/2015م، ص 17

*– هناك فرق بين العولمة والعالمية؛ فالعولمة مشروع غربي يهدف إلى تحقيق غايات وأهداف خاصة على حساب شعوب وكيانات متعددة، دون وضع أدنى اعتبار لها أو اعتراف بوجودها، فهي مشروع للاستحواذ والهيمنة يلغي الخصوصية، وينافي القيم الأخلاقية الإنسانية. أمّا العالمية فهي نزعة إنسانية عامة، تهدف إلى التفاعل الايجابي بين الأمم والشعوب والقوميات، وتسعى إلى التلاقح البناء المثمر بين الحضارات، مع احترام الخصوصيات وعدم المساس بالهويات والثقافات...

(25) سورة يوسف، الآيتان[1–2].

(26) محمود حدّاد: الخطر على العربية خطر على ثقافة العرب العلمية، مجلة العربي، العدد 663، وزارة الإعلام، الكويت، فبراير 2014م، ص16.

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنية 2021

ويبعث تبني الغرب لهذه الاستراتيجية، مدى وعيه بالمكاسب الكبيرة التي يحققها من استلاب لغة الأمة المستهدفة، مقارنة باستعمال العنف ومنطق القوّة، الذي لا يعود عليه بطائل. ويمكننا أن نستشف السرّ في ذلك من قول شاعر صقلية "**إجنازيو بوتيتا**": "إن الشعوب يمكن أن تُكبلَ بالسلاسل، وتُسدّ أفواهها، وتُشرّد من بيوتها، ويَظلون على ذلك أغنياء، فالشعب يُفتقَر ويُستعبَد ما إن يُسلب اللسان الذي تركه الأجداد عندئذ يضيعُ للأبد"[27]

ومن الآليات التي اتبعها الغرب، تفعيلا لهذه الاستراتيجية وتحقيقا لغاياته:

– تكريس لغة العولمة لُغةً للتواصل بين أفراد العالم عبر قنوات التبادل الاقتصادي والمعرفي، تثبيتا لحضورها وتداولها على حساب غيرها في بيئات غير ناطقة بها، وفي ذلك امتداد للاستيطان اللغوي الثقافي الذي بدأه الغرب مع مستعمراته كفرضه للإنجليزية بدول الخليج واللغة الفرنسية بدول المغرب العربي.

– برمجة عقول الناطقين باللغة العربية، بإيحاءات سلبية وأفكار هدّامة تنال من لغتهم وتنتقص من قيمتها بوجدانهم؛ كالترويج لفكرة قصورها العلمي وعدم مواكبتها لمستجدّات التطور العلمي...لاسيما عند الناشئة؛ الفئة المقصودة؛ فالتأثير عليها أبلغ من غيرها؛ إذ من السهولة السيطرة على شخصية هذه الفئة وجعلها تنصاع لما يخالف نوازعها الفطرية، ويتحقق ذلك بتعميق "مسار الاغتراب في حياتهم الخاصة والعامة، ومن خلال هذا الاغتراب ينغرس الشعور الوهمي بأنّ الثقافة التي ينتجها الغرب هي ثقافة الكون كله"[28]، فيتشبعون بقيمها ومعتقداتها المهيمنة.

– تشجيع الفرد العربي على تشويه لغته والإساءة لها؛ بطمس بلاغة تعابيرها وجماليات تراكيبها، بشيوع اللحن والزلل على لسانه وفيما يدوّنه، وعن طريق مزجها بالعامية والدارجة أو اللهجات الموجودة ضمن بيئتها، بل تعدّى الأمر إلى تجسيد كلماتها بحروف لاتينية ومصطلحات أجنبية، مما جعلها فضاء هجينا لتراكيب وتعابير غريبة، شاذة عن أصلها و ذلك هو مبتغى الغرب؛ فتنكر المرء للغته ضمنيا هو استعداد منه إلى"هجرة أو اهتجار دائم إلى كل ما هو أجنبي"[29] ذلك أن "اختلاف اللسان يوقع اختلاف الفهم، ويبعد عن الميراث القومي ويجعل المواطن مرتبطًا أشد الارتباط باللغة الغالبة على ذهنه، المتمكنة من نفسه القائمة في شعوره وعواطفه، فيقرأ هذا المواطن لغة القوم الأجانب وحدها"[30] .

– الثابت اللغوي من ثوابت السيادة والتوطين، عدم الاستقرار عليه يؤول إلى عدم الاستقرار على الثوابت الأخرى كما أكد ذلك عبد القادر الفاسي الفهري[31]. وعليه، فقد عمل الغرب على استثمار مسألة التعدد اللغوي واللهجي داخل الوطن العربي–إذ"هناك إذكاء للصراع في مستويين: مستوى صراع داخل ألسن الهوية وصراع ألسن الهوية واللغات الأجنبية"[32]، وتنمية حس هذا التعدد الألسني قد يطال التعددية الثقافية، مما يمكن من ضرب وحدة الوطن العربي بتشكل النزعات القبلية والحركات الانفصالية من داخله، كل منها تطالب باستقلاليتها وتكريس للغتها وثقافتها الخاصة، وهو ما أصبحت تعايشه اليوم وتعاني منه العديد من أقطارنا العربية.

---

(27) نبيل علي: الثقافة العربية وعصر المعلومات، منشورات سلسلة عالم المعرفة، الكويت، يناير 2001م، ص 233.

(28) محمد محفوظ: الحضور والمثاقفة، المثقف العربي وتحدّيات العولمة، ط01، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2000م، ص113.

(29) عبد القادر الفاسي الفهري: حوار اللغة، إعداد: حافظ الإسماعيلي العلوي، ط01، زاوية الفن والثقافة، الرباط، المغرب،2007م، ص164.

(30) سامي الدّهان: المرجع في تدريس اللغة العربية، مكتبة أطلس، دمشق، 1962– 1963م، ص32.

(31) ينظر: عبد القادر الفاسي الفهري: حوار اللغة، ص170.

(32) المرجع نفسه، ص164.

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنيّة 2021

DOI: 10.15849/ZJJHSS.210730.02

- **واقع تعليم اللغة العربية وهاجس اغترابها في ظل هيمنة العولمة الغربية:**

قبل الحديث عن اللغة العربية وواقع تعليمها في وطننا العربي، وجب علينا التطرّق إلى نقطة مهمة في هذا الصدد، يلخصها سؤالنا الآتي: أيّ لغة تصلح في تعليم النشء، لغة الهوية أم لغة الآخر؟

إنّ بين الأمة ولغتها رابطة روحية عميقة، فهي كنّز ثمين، محفوظ، يرثه الآباء عن الأجداد، ويُوَرِّثه الآباء للأبناء والأحفاد، ولذلك –كما يؤكد العالم الألماني هردر–:"أن قلب الشعب إنما ينبض في لغته، وأنّ روح الشعب تكمن في لغة أسلافه، وهي الوعاء الذي استودعه الشعب كل ما أنجزه من نفائس الفكر وذخائر الأعراف والفلسفات والعقائد"[33]. وقد وعت القوميات الغربيـة بهذه الحقيقة، فعمدت في العصر الحديث إلى تركيز اهتماماتها على لغاتها تحقيقًا للوحدة القومية بين شعوبها والمحافظة على هوياتها، فقد أدركت أنها تعيش "في عالم من الصراع اللغوي تنتصر فيه لغات وتنهزم لغات أخرى، ومع هذه الهزيمة تغيب ثقافات وهويات"[34]. ولذا، كان من أولويات اهتمامها بلغاتها القومية، أن جعلتها هي الأساس في تعليم نشئها وتحصيله العلمي. فلا يخفى على أحد أنّ التعليم هو القلب النابض في جسم كل أمة، والدعامة الأساسية في بنائها والسبيل إلى بلوغها مصاف الأمم المتطورة علميًّا وحضاريًّا.

وخير مثال على طرحنا هذا، ما نشهده مع أمم غربية لا تعدّ ولا تحصى، كبيرة كانت أم صغيرة، كالأمة البلغارية والمجرية ناهيك عن اليابان وألمانيا وفرنسا وإيطاليا، جميعها قد اعتمدت لغاتها القومية في كافة مجالات الحياة وعلى رأسها المجال العلمي، وفي زمن العولمة، فحتى إسرائيل التي ليس لها كيان معترف به، قد أحييت اللغة العبرية الميتة بعد ألفي سنة لتستعملها لغة رسمية بمدارسها الرسمية والخاصة وفي التدريس بجامعاتها، بل لقد سمّت الجامعة الأولى لديها بالجامعة العبرية وليس اليهودية أو الإسرائيلية، نسبة إلى اللغة التي تريد إحياءها وتطويرها من خلال التدريس والبحث العلمي.[35]

وقد كانت اللغة العربية مصدرَ علوم الحضارة العربية ووعاء معارفها عبر التاريخ، ولأهلها فضل على سائر الحضارات، فالحضارة العربية "تعدّ أطول حضارة سادت الدنيا، فعلى مدار ما يقرب من ألف سنة، كان العلم على مستوى العالم ينطق بالعربية فقامت معظم العلوم الحديثة على ما أسسه علماء الحضارة الإسلامية وطوروه من علوم"[36]، وهذا بشهادة الآخر قبل شهادة أهلها، يقول المستشرق الألماني (هرنباخ): "إنّ اللغة العربية ليست ضعيفة ألبتة كما يدّعي بعض العرب وغير العرب، ولا عاجزة عن مواكبة عصر التقنيات، فالتاريخ يرشدنا إلى أنّ اللغة العربية كانت لغة لأكثر من ثلث سكان المعمورة، ولم تكن فقط لغة شعر أو نثر، وإنما كانت لغة تعامل وعلم، فبواسطتها نقلت الحضارة اليونانية وما قبلها بعلومها وفلسفتها...فهي لغة تفاعل مع كل موضوع وكل فن وعلم، وتلك ميزتها الكبرى التي لا تتضمنها أية لغة أخرى..."[37]، وفي هذا الصدد، يؤكد الباحث (رياض زكي قاسم)، في مقال له بعنوان "**هل العربية لغة علم؟**" أن العربية حققت وثبتها وفرداتها في تلك المراحل التاريخية، فقد بلغت شأنا عظيما في القرون الرابع والخامس والسادس والسابع وشهدت القرون الوسطى علمًا عربيًّا مزدهرًا، حيث أنشأ علماؤنا لغة خاصة بهذه العلوم، قامت على أساس متين من العربية، حتى كادت أن تكون اللغة العربية في ذلك التاريخ لغة العلم الوحيدة في العالم

---

(33) ينظر: محمود السيّد: اللغة والهوية، ص644.

(34) عبد العالي العامري: رؤى تشخيصية لوضع اللغة العربية في العالم العربي، مجلة العربي، العدد (666)، مايو 2014م، ص26.

(35) ينظر: محمود السيّد: اللغة العربية واقعا وارتقاء، ص28.

(36) خالد حربي: أسس العلوم الحديثة في الحضارة الإسلامية، د. ط، كتاب المجلة العربية 204، المملكة العربية السعودية، 1434هـ، ص10.

(37) ينظر: سالم لبيض: الهوية: الإسلام، العروبة، التونسة، ط 01، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، يناير 2009م، ص38–39.

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنية 2021

بأسره، وما كان لِيُكتب لها الاستمرار في النجاح مدة تزيد عن 800 سنة، من دون استعداد وتهيؤ المجتمع العلمي لذلك، وتوفر بنية تحتية للإنتاج العلمي بالعربية، بفعل سببين:

أولهما: مناصرة الخلفاء للعلماء والتشجيع على طلب العلم، فَأُسِّسَت بذلك المكتبات والمراصد العلمية البحثية.

ثانيهما: الربط بين الترجمة والبحث، ليس من أجل ترجمة النصوص العلمية إلى العربية وكتابة تاريخ العلوم فحسب وإنما لوضع وإنتاج نصوص علمية، ضرورية في تكوين الباحثين وتأهيلهم، لمتابعة البحث العلمي وتطويره، وفي هذا النهج توطين للعلم والمعرفة.[38]

وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل –كما يرى (سابير) أحد رواد علم اللغة الحديث–على أنّ أيَّ مجتمع لا يستطيع أنّ يتصرّف ويفكّر ولا يمكنه رؤية العالم والحياة إلاّ من خلال لغته؛ وهو ما أكّده تلميذه (بنيامين وورف) أيضًا حينما يرى أنّ الإنسان أسير لغته؛ فاللغة في نظره "ليست مجرد وسيلة للتعبير عن الأفكار، بل إنّها نفسها تشكّل تلك الأفكار فنحن نقسم الطبيعة (أو العالم) بموجب الخطوط التي ترسمها لنا لغاتنا القومية"[39].

ولذلك، فمن السفاهة اعتقاد المرء، بأنّ هناك لغة علمية وأخرى غير علمية، و"من الخطأ الفاحش القول بأنّ هناك لغة بدائية متخلفة ولغة عصرية متقدّمة"[40]، فعزّ اللغات مرهون بعزّ أهلها لها؛ بالمحافظة عليها والارتقاء بها إلى الأبد؛ فاللغة "في أية فترة زمنية ما هي إلاّ انعكاس لاهتمامات المجتمع الذي يتكلمها، فهي تفي باحتياجات المجتمع واهتماماته بشكل مرض جدًا، فإذا انتقل المجتمع من حال إلى حال كأن يكون أميًّا فيتعلم، أو يكون مجتمعًا زراعيًّا فيتحول إلى مجتمع صناعي، أو يكون مجتمعًا منعزلًا فتنفتح أمامه آفاق الاتصال بمجتمعات أخرى، لم تقف اللغة حائلًا دون ذلك التحوّل بل أن في كل لغة إمكانيات للتطور والتغيّر بحيث تتمشى مع احتياجات واهتمامات المجتمع الجديدة."[41] أمّا إذا عدنا للإجابة عن سؤالنا الأوّل:

ما واقع تعليم اللغة العربية في ظل العولمة الغربية؟

فنقول؛ إنّ واقع تعليم اللغة العربية وما تعايشه بعالمنا العربي، مؤسف حقًّا، فنظرة خاطفة على "واقعنا اللغوي تكشف لنا بشكل واضح أن تعليم اللغة العربية في محنة لا تقل عن محنة أمتنا في التمزق والتشتت"[42]، وقد أفرز هذا الواقع المتأزّم، تداعيات العولمة الغربية على بلداننا، واجتمعت في تشكيله أبعاد متعددة، فرضت اغترابا بيّنا في تعليم العربية لذويها، وعمّقت فجوة البعد بينهما، نوجز هذه الأبعاد فيما يلي:

– السياسة اللغوية العربية:

لا شك أنّ تعزيز مكانة اللغة الرسمية هو قرار سياسي قبل كل شيء، فالدولة هي الطرف الأساسي، المخوّل برسم ووضع سياسة لغوية، تصاغ في شكل مواد دستورية ونصوص تشريعية صريحة، تلزم الساسة وأهل القرار الفاعلين، بتنفيذها وممارستها تجاه اللغة القومية، بهدف المحافظة عليها والارتقاء بها داخل حدود الدولة وخارجها.

ولئن كانت العربية لغة وطنية رسمية للأمة العربية جميعها، بإقرار من دساتير دولها، وبما سنتّه من قوانين لغوية بشأن هذه اللغة، غير أنّ المتتبع لوضعية اللغة العربية بأوطانها، يشعر بالأسى العميق لما آلت إليه من واقع

---

(38) ينظر: رياض زكي قاسم: هل العربية لغة علم؟، مجلة العربي، العدد (662)، يناير 2014م، ص28–29.

(39) نايف خرما: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، ص180–181.

(40) نايف خرما: المرجع نفسه، ص181.

(41) المرجع نفسه، ص181.

(42) محمود أحمد السيّد: في قضايا اللغة التربوية، وكالة المطبوعات، الكويت، 1980م، ص14.

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنيّة 2021

DOI: 10.15849/ZJJHSS.210730.02

متأزم متردّي؛ فما سنته الدساتير العربية من تشريعات ومقررات لغوية، تبقى في مجملها حبيسة الورق، غائبة عن الممارسة والتنفيذ واقعًا، ويعود ذلك لعدّة عوامل أهمها، أن جلّ البلدان العربية رغم استقلالها لم تتحرر بعد من سيطرة اللغة الاستعمارية، ناهيك عن هيمنة لغة العولمة الغربية على مجالات حياتها العصرية.

فنظرة سريعة على واقع اللغة بدول المغرب العربي مثلًا، يلحظ أن اللغة الفرنسية التي يعدّها البعض غنيمة استعمار؛ لا زالت تفرض سيطرتها على قطاعي الإدارة والتعليم على وجه الخصوص، وإن سعت حكومات هذه الدول إلى وضع استراتيجية تخطيط لغوي يحدّ منها، بتبنيها سياسة التعريب التي لم تسلم من عثرات عدم التنفيذ أيضًا، وهو ما أشارت إليه الباحثة الأكاديمية كاتيا حداد في حديثها عن غزو اللغة الفرنسية لبلدانٍ من العالم العربي بقولها: "لقد أتاحت لنا الدراسة الاستقرائية التي قمنا بها إبراز حقيقة أن الفرانكفونية المدرسية تقدّمت خلال العقد الأخير ولم تتأخر. وكان من أسباب هذا التطور انحسار تيار التعريب من المناهج الدراسية. فقد شهد العقد الأخير إعادة إدراج اللغة الفرنسية أو تقويتها في البرامج الدراسية بدرجات متفاوتة وذلك في البلدان الآتية: تونس والمغرب وسوريا ومصر وفي لبنان. تم اعتماد مبدأ الازدواجية اللغوية المبكرة على مستوى الدولة، وهو مبدأ جاء ليزكي اختيارات السكان اللغوية ويضفي طابعًا رسميًّا على مكانة اللغات الأجنبية"[43]، بموجب سلطة الامتثال للواقع المهيمن طبعًا.

- البعد الاجتماعي:

إن كل ذات بشرية هي وليدة بيئتها، بمعنى أن كل فرد له دافع الانتماء لمجتمعه، ومنه؛ فالمحيط الاجتماعي له سلطة على هذا الفرد، إذ يملي عليه أفكاره ومواقفه، ويدفعه إلى القيام بأفعال معيّنة إرضاء له، وهذا ما يعبّر عنه الفيلسوف "دوركايم" بمقولته الشهيرة (إذا تكلّم الضمير فينا؛ فإن المجتمع هو الذي يتكلم).

وبناءً على هذا المعطى، نشير إلى إشكال اجتماعي خطير، هو أصل تدني تعليم اللغة العربية، وسبب انحطاط مستوى طلبتنا في طلب علومها؛ إنها المجتمعات العربية، فهي المسؤول الأوّل عن وضعية اللغة العربية؛ عن غياب دافعية تعلّم أبنائها للغتهم الأم، والاهتمام بعلومها، فهذه المجتمعات ورّثت أجيالها نظرة خاطئة عن لغتهم وغذّت عقولهم بأفكار مسمومة تجاهها، إذ ترى في العربية تخصصا عديم الجدوى و أنّها ليست بلغة علم؛ تستوعب بعلومها التطور العلمي والمعرفي الذي يشهده العالم، فحصروا بذلك دورها على الكتاتيب والزوايا؛ وعدّت برأيهم "لغة سلفية جامدة تتطلع إلى الوراء بدلًا من أن تتجه إلى الأمام"[44]، وهذا التفكير السلبي تجاه اللغة العربية وعلومها، وجد طريقه إلى أذهان المتعلمين بهذه اللغة، فانعكس بالسلب على تعلّمهم لها وتحصيلهم فيها.

فضلًا عن ذلك، إنّ الكثير من الأسر العربية، تنفّر أبناءها من تخصصات اللغة العربية وعلومها، مقابل الإعلاء من شأن تعلم لغات الآخر؛ "بدعوى الانفتاح على العالم الخارجي وتكثيف الاتصال به، للتعرّف على مسيرة تقدّمه وتطوره"[45]، والأمر هنا يتجاوز مسألة الانفتاح على الآخر، بحيث لو كان ذلك حقًّا، لحققنا لمجتمعاتنا العربية ما حققه غيرنا من تطور ملموس، وإنما المسألة كما عبّر عنها ابن خلدون: "أنّ النفس أبدا تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت له؛ إمّا لنظرة بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي، إنما هو الكمال

---

(43) ينظر: جميل ناجي: لغتنا العربية في البعد القومي، كلمة العدد: اللغة العربية إلى أين؟ مجلة طلقة تنوير، العدد رقم 14، www.qawmi.com

(44) ينظر: رمضان عبد التواب: دراسات وتعليقات في اللغة، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1994م، ص157.

(45) زهير حسن الحروب: تأملات في التربية العربية، ط1، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، 2015م، ص24.

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنية 2021

الغالب"[46]، وبين هذا التبرير وذاك يسوّغ هؤلاء لمشروع استعماري، محكم التخطيط؛ فـ"المستعمر لم يكن غافلًا عن الارتباط الوثيق بين اللغة و الفكر، وقد فرض لغاته على التعليم، ليربي الشعب العربي على التبعية له"[47]، و يحول بينه وبين صلته بثوابت أمته، ومنها لغته؛ "فاختلاف اللسان يوقع اختلاف الفهم، ويبعد عن الميراث القومي، ويجعل المواطن مرتبطا أشد الارتباط باللغة الغالبة على ذهنه، المتمكنة من نفسه، القائمة في شعوره وعواطفه، فيقرأ هذا المواطن لغة القوم الأجانب وحدها"[48]، ثمّ يزداد بعده عن لغته ثمّ هويته.

ولذلك، فأزمة تعليم اللغة العربية في عصرنا هذا، لا تكمن في ذاتها وإنّما العيب في أهلها، فهم من يحط من قدرها ويُمكّن الآخر منها؛ إذ "لو قدّر للغة العربية، أن تحتل في النفوس مكانة من الاعتزاز لا تقبل التشكيك وإيمانا بقدرة العطاء، وطاقة الإبداع لكان يومها أفضل من أمسها وغدها خير الاثنين معا، بناءً ذاتيًّا وعطاءً حضاريًّا وإبداعًا علميًّا، وبقدر الإيمان بهذه اللغة والثقة في قدرتها يكون الإنجاز الحضاري"[49]؛ فكيف للغة "اتسعت مدلولاتها للقرآن الكريم وآياته، ألاّ تتسع لأن تكون أقدر على التعبير عن مستويات تقدّم الإنسان عبر العصور؟"[50] إنّها جديرة بأن تعبّر عن معطيات كل علم، وأن تكون وعاء يستوعب كل جديد:

وَسِعْتُ كتابَ الله لفظـا وغـايـةً
وَمَا ضِقتُ عن آيٍ به وَعِظَاتِ
فَكَيفَ أَضِيقُ اليومَ عن وصفِ آلةٍ
وتنسيقِ أسماءٍ لمخترعــاتِ[51]

غير أن اللغة العربية غُيّبت للأسف من اهتمامات أهلها، وذلك مبتغى الغازي الأجنبي الذي يستهدف الأمّة العربيــة في ثوابتها، ويسعى إلى بسط نفوذ لغته وثقافته بمجتمعاتنا شكلاً من أشكال الاستعمار الثقافي في زمن العولمة، وقد وجد الفرصة سانحة؛ فهناك قابلية لأفراد مجتمعاتنا، ولو على سبيل اللاوعي في التنكّر للغتهم.

البعد التعليمي:

في تعلّم اللغة العربية والإجادة في علومها فضل عظيم وخير وفير؛ فهي السبيل إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيّه (عليه السلام) فهما وتفقها. يقول أبو منصور الثعالبي: "من أحبّ العربية عُنِيَ بها وثابر عليها، وصرف همّته إليها، ومن هداه الله للإسلام وشرح صدره للإيمان وأتاه حُسن سريرة فيه، اعتقد أنّ محمدًا (صلى الله عليه وسلّم) خير الرّسل والإسلامَ خير الملل والعربَ خير الأمم والعربيةَ خير اللغات والألسنة والإقبال على تفهّمها من الدّيانة، إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقّه في الدّين وسبب إصلاح المعاش والمعــاد ثمّ هي لإحـــراز الفضائل والاحتـواء على المروءة وسائر أنواع المناقب"[52]

---

(46) ابن خلدون: المقدمة، ط1، دار ابن الجوزي للطبع والنشر، القاهرة، دت، ص121

(47) زهير حسن الحروب: المرجع السابق، ص24.

(48) سامي الدّهان: المرجع في تدريس اللغة العربية، ص32.

(49) ينظر: صالح الخرافي: اللغة العربية هويتنا القومية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ندوة من قضايا اللغة العربية المعاصرة، تونس،1990م، ص21.

(50) ينظر: عبد الصبور شاهين: في علم اللغة العام، مؤسسة الرسالة، بيروت، دت، ص252.

(51) محمد حافظ إبراهيم: المؤلفات الكاملة (الدّيوان)، كلمات عربية للترجمة والنشر، مصر، القاهرة، دت، ص137.

(52) أبو منصور الثعالبي: فقه اللغة وسر العربية، قراءة: خالد فهمي،ج01، ط01، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1418هـ، 1998م، ص03.

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنيّة 2021

DOI: 10.15849/ZJJHSS.210730.02

بيد أن السواد الأعظم من طلبتنا اليوم، بدءًا من أطوار تعليمهم الأولى وإلى غاية وصولهم إلى الجامعة؛ يعانون عدم القدرة على الارتجال أمام أساتذتهم وزملائهم، ليعبّروا– بلسان فصيح، سليم التعبير، بأساليب لغتنا وسحر بيانها– عن حاجاتهم الشخصية، وإذا ما أقبل أحدهم على ذلك، وَقَع بكلامه اللحن والزلل وغابت بنات أفكاره بين ثنايا حديثه المتلعثم، فهم "فقيرون إلى الثروة اللغوية اللازمة لنجاحهم في الحياة العلمية والدنيوية، فقيرون إلى التذوق الأدبي الذي يهذّب نفوسهم ويشكّل وجدانهم بالحس الجمالي الرفيع، فيخرجون إلى الواقع عزّلًا من طرائق التفكير السليمة القائمة على قوة اللغة العربية"[53]، بعيدين بذواتهم عن روح الإبداع والتميّز بلغتهم الأم.

فما الأسباب الكامنة وراء هذه الوضعية المتأزمة لمتعلّمي اللغة العربية ؟

إن أهم عامل للتراجع والركود الذي يشهده تدريس لغتنا العربية بمدارسنا ومؤسساتنا الجامعية اليوم، يُردّ–بنظرنا إضافة إلى ما ذكرناه سابقًا؛ إلى عاملين رئيسيين، هما:

أولا: المحتوى الدراسي:

يلحظ المطّلع على المقررات التعليمية المعتمدة في تدريس اللغة العربية بمؤسساتنا التعليمية، أنّها لغاية يومنا هذا "تركّز على الماضي أكثر من الحاضر والمستقبل، وأنّ ثمة ضعفًا في استجابتها لحاجات المجتمع والفرد المستقبلية وإدراك طبيعة العصر ومستلزماته والإرهاصات بالمستقبل"[54]، وطريقة تعلّمها قوامها المنهج المعياري، العقيم في تلقين المتعلم لعلوم اللغة العربية، وهو ما لم يُجد مع المتعلم نفعًا علميًّا معرفيًّا، بل إن ديمومة هذا المنهج التعليمي بمدارسنا وجامعاتنا يعمّق من أزمة تعليم العربية التي حباها الله بمزايا كثيرة مقارنة بغيرها من اللغات الأخرى، ويضاعف من فرضية عقم لغتنا العربية علميًّا، ويغيّبها ممارسة وظيفية اجتماعية أيضًا.

ومن هذا المنطلق، فإذا ما أردنا النهوض بتعليم اللغة العربية، يجدر بنا أن نحرّرها من المنهج المعياري التجزيئي، المعتمد في تدريس علومها، ثمّ نضع حدّا لاجترار المعطيات التقليدية بمقرراتها التعليمية، بحسن "اختيار المناشط اللغوية السائدة في المجتمع التي يكثر استعمالها في مواقف الحياة... بحثًا عن مواقف التعبير الوظيفية في الحياة"[55]، إذ لا سبيل إلى التعلم الوظيفي، بعيدًا عن الواقع، وبمنأى عن روح العصر ومعطياته السائدة.

– ثانيا: المنهج التدريسي:

إنّ التدريس ليس مهمّة سهلة هيّنة؛ وإنما "هو عملية موازنة دقيقة بين أهداف المحتوى والاستراتيجيات اللازمة لتحقيق تلك الأهداف والخبرات التي يكتسبها المتعلّم في مواقف التعلّم، فهو مفهوم شامل يتضمّن جميع الحوادث التي لها تأثير مباشر في تعلّم الفرد"[56]، ولذلك فمهما كان محتوى المادة الدراسية معدًّا إعدادًا جيّدًا وكان منهج تدريسها مثمرًا بأهدافه وآلياته وإجراءاته، فإنّ ذلك لن يؤتي ثماره ولن يتحقق انجازه الفعلي دون المسؤول الأوّل عن تنفيذه، ونقصد بذلك: (المعلّم/ الأستاذ)، فهو المكلّف بإنجاح عملية تدريس المادة المقررة بيداغوجيا، وهو المشرف الرئيس على تطبيق البرنامج الدراسي وتحقيق أهدافه.

---

(53) راشد علي عيسى: مهارات الاتصال، كتاب الأمّة، العدد 103، ط1، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، أكتوبر/ نوفمبر 2004م ، ص60.

(54) ينظر: محمود السيّد: اللغة العربية (واقعا وارتقاء)، ص 107.

(55) المرجع نفسه، ص 109.

(56) سعاد عبد الكريم الوائلي: طرائق تدريس الأدب والبلاغة والتعبير، ط1، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان– الأردن، 2004م، ص40.

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنية 2021

وحديثنا عن دور المعلّم في إنجاح العملية التعليمية هو حديث عن إشكالية بيداغوجية في تعليمية علوم اللغة العربية حديثًا، فعينات كثيرة من مدرّسي هذه اللغة العظيمة تحتاج إلى إعادة تكوين وإجبارية تأهيل، لما يعوزها من أشياء تتطلبها بيداغوجيا التعليم الحديثة والبعد الوظيفي لمقاربات التدريس الجديدة، فالكثير من مدرسي العربية:

– تكوينهم تكوينٌ تراثيٌ؛ يدرّسون علوم العربية بطرق تقليدية ومناهج قد انتهى زمنها الافتراضي.

– عدم الإعطاء الجيّد مع المستجدّات العلمية والإفادة من التقنية الحديثة في تطوير أساليبهم البحثية والتعليمية.

– يغيب عن أدائهم التربوي التعليمي الاهتمام بمهارات التعلّم الذاتي لدى المتعلّم، وعدم الوعي بأهمية الدافع الذاتي للتعلّم، فمن أسباب تدني مستوى تعليم اللغة العربية، وعزوف المتعلّمين عن علومها غياب الدافعية لدى متعلّمينها، فمن البديهي "أن ما يتعلمه الفرد يكون أكثر جدوى حينما يكون مهتما به، عمّا لو أجبر على تعلّمه"[57]، وغياب الدافعية لدى متعلم العربية، سببها في أحايين كثيرة اللامبالاة؛ المقصودة أو غير المقصودة من قبل بعض مدرّسي علوم اللغة العربية، إذ نلمس بالوسط المدرسي والجامعي سلوكيات غير لائقة، لا تحفّز إطلاقا على النهوض بتعليم هذه اللغة بقدر ما تنتقص منها ومن شخصية مدرّسها؛ كأن يعمد أحدهم إلى تلقين طلابـه علوم اللغة بلهجته الخاصة أو بـ "العامية"، فيؤذي بذلك اللغة وينفّر متعلّميها ويلغي عن شخصه، مبدأ اقتداء التلميذ بمعلّمه والطالب بأستاذه.

ولذلك، فالمعلّم رسالته سامية ومنزلته في المجتمع عظيمة جداً، وخطؤه أعظم؛ فهو بمثابة "فنان يرسم الطريق ويهيئ اللوحة بأجمل الألوان وأزهى الأشكال والطالب بين يديه مثل قطعة قماش بيضاء يرسم على وجهها بريشته البارعة ما يريد من معلومات، تزيد الجمال عمقًا وسعة في التفكير"[58]، وكلما كان المدرّس أمينًا في رسالته، عارفًا بمكانة لغته يجيدها حديثًا وممارسة، وبما يُعلي من شأنها عند طلبته، اعتزّوا بها وأقبلوا عليها إقبال النحل على الخلية؛ فـ"الطالب العربي لا بدّ من أن يدرك عظمة قومه بين الأمم وعظمة لغته بين اللغات؛ لأنها ليست قليلة في الأزمان، وليست قليلة في الرقعة، وليست ضعيفة النتاج"[59]، وإنما من سوء حظّها ابتليت في حاضرنا بقوم يجهلون مكانتها وقيمتها بين سائر اللغات، فنعوها وسارعوا إلى تشييع مثواها.

– على سبيل الختام (سبل تثبيت لغة الهوية والانفكاك من اغترابها):

لا شك أنّ التحّدي الكبير الـذي يضعنا اليوم على المحكّ أكثر من ذي قبل؛ يلخصه سؤالنا الآتي:

ما السبيل إلى تثبيت لغة هويتنا وتحصينها من المد اللغوي المُعَولَم؟

لم يعد الحفاظ على اللغة في حياتنا المعاصرة مجرد هدف فكري، وإنما أصبح هدفًا قوميًّا حضاريًّا، من خلالها تحافظ الأمة على هويتها، وتصون وحدتها من قوى الاستبداد والتغريب التي تتربص بها عبر التاريخ، وتسعى جاهدة إلى تفتيتها واستلاب ثوابت هويتها. لذا؛ فالسبل الكفيلة بالحفاظ على لغة الهوية وتحصينها من الاغتراب هي:

– الوعي بأهمية اللغة العربية في بعديها القومي والحضاري، وأنّ المحافظة عليها والارتقاء بها، ضمان لوحدة أمتنا.

– التوحيد بين الهوية واللغة؛ فالاغتراب–كما قال حسن حنفي–ازدواجية ولا يمكن القضاء عليه بازدواجية أخرى.

– الحفاظ على لغة الهوية لا يعني الانغلاق وعدم الانفتاح على لغات الآخر، وإنما لا بدّ من تعلّم اللغات؛ للمعرفة بعلوم الآخر وثقافته، دون إلغاءٍ لخصوصية الأنا أو فقدان للهوية القومية، ولنا أن نحتذي في ذلك بالفكر العربي القديم الذي لم ينبهر بالآخر، ولا بما حققه من منجزات، وإنّما حاول مواكبة مستجدّاته بوعي وتقصٍّ كبيرين.

---

(57) عبد القادر بن محمد: دروس في التربية وعلم النفس، معهد التكوين والتربية، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 1973–1974م، ص112.

(58) ينظر: سامي الدّهان: المرجع في تدريس اللغة العربية، ص39

(59) المرجع نفسه، ص39.

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنيّة 2021

– الإيمان بقدرات اللغة العربية، بأنها لغة علم ووعاء للمعرفة، بتجاوز الشعور بعقدتي النقص والعجز تجاهها، فاللغات متساوية؛ فلا يوجد لغة علمية متطورة وأخرى متخلفة غير علمية، وأنّ الحضارات بين مدّ وجزر، لا توجد حضارة باقية للأبد وأخرى ساقطة للأبد؛ فمسار الحضارات في دورات عبر التاريخ، والأمر متوقف على أهلها.

– تفعيل الحكومات العربية لمخطط سياسي لغوي؛ يتجاوز التصريح بما تحفظه دساتيرها للغة العربية إلى التنفيذ والتجسيد الفعلي في حفظ منزلتها بين سائر اللغات، وبالتمكين لها في مختلف القطاعات داخل حدود الدولة وخارجها.

– تكوين وإعداد الأساتذة المدرسين لعلوم العربية، وتنظيم دورات تدريبية لموظفي القطاع الإعلامي الناطقين بها.

– الإفادة من الطرائق التربوية الحديثة، واستثمار التقنيات التكنولوجية المتطورة في تعليم اللغة العربية وعلومها.

– تحفيز الطالب العربي على تعلّم لغته، وتشجيعه على الإبداع في مجالها، مع ضرورة تكريم أهل الإبداع بهذه اللغة وإتاحة فرص العمل للنخبة المتقنة لها، سياسيًّا واقتصاديًّا.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- إبراهيم مصطفى إبراهيم: فلسفة اللغة نشأتها وتطورها وأبرز أعلامها، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2009م.
- أحمد زكي بدوي: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، ط1، مكتبة لبنان، بيروت، 1977م.
- أحمد عبده عوض: مداخل تعليم اللغة العربية، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية، المملكة العربية السعودية، 1421هـ، 2000م.
- أحمد مختار عمر وآخرون: معجم اللغة العربية المعاصرة، ط1، عالم الكتب، القاهرة، المجلد الأوّل، دت.
- الجرجاني: التعريفات، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988م.
- جميل ناجي: لغتنا العربية في البعد القومي، كلمة العدد: اللغة العربية إلى أين؟ مجلة طلقة تنوير، المجلة الثقافية للائحة القومي العربي، العدد14، 01 تموز 2015. www.qawmi.com
- ابن جني: الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، الجزء الأول، دط، عالم الكتب، بيروت، دت.
- حسن حنفي:

– الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2012م.

– الهوية والاغتراب في الوعي العربي، مجلة تبيّن، العدد01، قطر، صيف 2012م.

- خالد حربي: أسس العلوم الحديثة في الحضارة الإسلامية، د.ط، كتاب المجلة العربية 204، المملكة العربية السعودية، 1434هـ.
- ابن خلدون: المقدمة، ، ط1، دار ابن الجوزي للطبع والنشر، القاهرة، د ت.
- راشد علي عيسى: مهارات الاتصال، كتاب الأمّة،ع:103، ط1، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، أكتوبر/نوفمبر 2004م.
- رمضان عبد التواب: دراسات وتعليقات في اللغة، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1994م.
- رياض زكي قاسم: هل العربية لغة علم؟، مجلة العربي، العدد (662)، يناير 2014م.
- زهير حسن الحروب: تأملات في التربية العربية، ط1، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، 2015م.
- سالم لبيض: الهوية: الإسلام، العروبة، التونسة، ط01، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، يناير 2009م.

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنية 2021

- سعاد عبد الكريم الوائلي: طرائق تدريس الأدب والبلاغة والتعبير، ط1، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان– الأردن، 2004م.
- سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1985م.
- سامي الدّهان: المرجع في تدريس اللغة العربية، مكتبة أطلس، دمشق، 1962– 1963م.
- صالح الخرافي: اللغة العربية هويتنا القومية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ندوة من قضايا اللغة العربية المعاصرة، تونس،1990م.
- عبد الصبور شاهين: في علم اللغة العام، مؤسسة الرسالة، بيروت، د ت.
- عبد العالي العامري: رؤى تشخيصية لوضع اللغة العربية في العالم العربي، مجلة العربي، العدد (666)، مايو 2014م.
- عبد العزيز بن عثمان التويجري: الهوية والعولمة من منظور التنوع الثقافي، ط2، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، المغرب، 1436هـ/2015م.
- عبد القادر الفاسي الفهري: حوار اللغة، إعداد: حافظ الإسماعيلي العلوي، ط01، زاوية الفن و الثقافة، الرباط، المغرب،2007م.
- عبد القادر بن محمد: دروس في التربية وعلم النفس، معهد التكوين والتربية، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 1973– 1974م.
- الفارابي: التعليقات، دائرة المعارف العثمانية، جمادى الآخرة 1436.
- فاخر عاقل: معجم علم النفس، ط1، دار الملايين، بيروت، 1985.
- مجمع اللغة العربية:
  - المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1979م.
  - المعجم الوسيط، ط4، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2004م.
- محمد حافظ إبراهيم: المؤلفات الكاملة (الدّيوان)، كلمات عربية للترجمة والنشر، مصر، القاهرة، دت.
- محمد محفوظ: الحضور والمثاقفة، المثقف العربي وتحدّيات العولمة، ط01، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2000م.
- محمود أمين عالم: دفاع عن الخصوصية اللغوية، عن كتاب: لغتنا العربية في معركة الحياة، العدد (السابع والثامن عشر)، سلسلة قضايا فكرية للنشر، القاهرة،1997م.
- محمود حدّاد: الخطر على العربية خطر على ثقافة العرب العلمية، مجلة العربي، العدد 663، وزارة الإعلام، الكويت، فبراير 2014م.
- محمود رجب: الاغتراب سيرة مصطلح، ط3، دار المعارف، القاهرة، 1988م.
- محمود السيّد: اللغة العربية (واقعا وارتقاء)، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
  - في قضايا اللغة التربوية، وكالة المطبوعات، الكويت، 1980م.
  - اللغة والهوية، مجلة مجمع اللغة العربية، المجلد (85)، الجزء (03)، دمشق، د ت.
- مصطفى ناصف: اللغة والتفسير والتواصل، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1995م.

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنيّة 2021

DOI: 10.15849/ZJJHSS.210730.02

- أبو منصور الثعالبي: فقه اللغة وسر العربية، قراءة: خالد فهمي،ج01، ط01، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1418هـ ، 1998م,
- ابن منظور: لسان العرب، تصحيح: أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصادق العبيدي،(الجزءان 12–15)، ط03، دار إحياء التراث العربي،1419هـ، 1999م.
- نايف خرما: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، منشورات سلسلة عالم المعرفة، الكويت، سبتمبر 1978م.
- نبيل علي: الثقافة العربية وعصر المعلومات، منشورات سلسلة عالم المعرفة، الكويت، يناير 2001م.
- وفيق سليطين: سؤال الهوية ونقد منطق الخصوصية، أوراق مؤتمر الهوية الوطنية، ط1، مداد مركز دمشق للأبحاث والدراسات، د.ت، وزارة الثقافة، دمشق، 2010م.

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنية 2021